شبلى شميل

«الاشتراكية نتيجة لأزمة، لمقدمات ثابتة، لا بد من الوصول إليها ولو بعد تذبذب طويل»
شبلى شميل
(مجموعة الأعمال – الجزء الأول)

من ريف لبنان، من كفر شمعا يأتينا طبيب شاب.

الأسرة من الأعيان.

الأخ الأكبر وليم، مدرس مولع بالفلسفة.

الأخ الآخر أمين محام.

الابن الأصغر "شبلى" تخرج فى مدرسة الطب فى كلية البروتستانت فى سوريا عام ١٨٧١، وفى عام ١٨٧٥ توجه إلى أوروبا حيث بهر بنظرية داروين عن تطور نشأة الإنسان، وفى عام ١٨٧٦ أتى إلى مصر ليمارس مهنة الطب ويصدر أول مجلة طبية مصرية اسمها "الشفاء". وشبلى شميل واحد ممن يتفجرون بمعرفتهم مهما كان الثمن، ومهما كانت المحاذير، فعنده أن "الحقيقة أن تقال لا أن تعلم"، فما قيمة أن تحتكر المعرفة لنفسك، ولا تتفجر بها أمام المجتمع وفى أعماقه؟ هكذا ومنذ وصوله لمصر بدأ فى الكتابة وبغزارة غير مسبوقة وفى كافة الميادين: الفلسفة، الطبيعة، الأدب، السياسة، القانون، حقوق المرأة، ويصوغ ذلك كله نثرا أو شعرا. لكن كل هذه المقالات مرت دون أن تحرك البحيرة الراكدة فى عقل مصر.

ومضى يخاطب العقل المصرى، يتصادم معه، يدعوه، بل يتوسل إليه أن يعمل ويفكر ويبدع دون خوف ودون قيد، فهو يناشد قارئه "إليك أكتب أيها العاقل، العاقل المتأمل، ولا أطلب منك علما واسعا وفلسفة بديعة وحكمة بليغة، بل أطلب منك عقلا حلت قيوده وتفتحت منافذه، وأقام التفكير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرر، يقدر مستنتجات العلم قدرها ولا

يبخس مستنبطات العقل حقها". (مقال: القضاء على القضاء – البصير – عام ١٨٩٨).

ولكن ردود الفعل تبدو متباطئة فلا بد من زلزال.

وببساطة يفجر الطبيب اللبنانى المولد زلزالا فكريا صارخا فى العمق إذ يصدر كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء" وهو ترجمة لكتاب بخنر المعنون "ست مقالات حول نظرية داروين" وعلى الغلاف يحرض القارئ قائلا: "طالع هذا الكتاب بكل تمعن، ولا تطالعه إلا بعد أن تطلق نفسك من أسر الأغراض لئلا تغم عليك نفسك وأنت واقف تطل على العالم من شرفة عقلك تتلمسه من وراء ستارها".

ويحدث الزلزال؛ انهال الهجوم على شميل من الجميع، «لقد أحدث نشر هذا الكتاب لغطا عظيما مع أنه لم يطبع منه إلا خمسمائة نسخة، لغطا قليلا من الخاصة المعدودة، وكثيرة من العامة الذين أكثروا من الجلبة عن سماع لا عن مطالعة». (المقتطف – عام ١٨٨٥).

ولكن كيف يواجه الإنسان الزلزال؟ البعض يتراجع والبعض يصمد، لكن شميل يختار أن يواصل الهجوم، فبعد عام واحد يصدر كتابا جديدا هو بذاته زلزال أشد عنفا أسماه "الحقيقة" ليرد على مهاجميه، ردا عنيفا صاعقا، فشميل رجل يتمسك بموقفه ما دام يعتقد بصحته «لست أخشى تخطئة الناس لى إذا كنت أعرفنى مصيبا ولا يسرنى تصويبهم لى إذا كنت أعرفنى مخطئا». وهكذا واجه شميل الإعصار وحيدا وسعيداً أيضا.

ثم يقول: "فهذه الرجة التى حصلت اليوم هى المقصودة منى فى ذلك الحين لإيقاظ الأفكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكوت".

وشميل يعرف تماما ماذا يريد فيقول: "إن غرضى من هذا البحث إنما كان لإقرار الفلسفة المادية على أساس علمى متين".

وبطبيعة الحال تنشب معركة ضارية بين شميل رجال الدين، ومرة أخرى لا يتراجع، بل هو يواصل الهجوم، وهو كعادته يشن هجوما ضاريا وعلى كل الجبهات، بل ومتجاوزاً فى بعض الأحيان للعلامات الحمراء غير المسموح بتجاوزها.

ولنقرأ ما كتب شبلى شميل عن بعض رجال الدين: "فنرى مما تقدم أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية فى سبيل العمران، بل رجال الدين أنفسهم" (مجموعة أعمال شبلى شميل – ج٢ – ص٦٢).

ويقول : "ولكن الأديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب فى أيدى أولئك الذين اتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الإنسان، فرؤساء الأديان من كل دين وملة علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم به الأديان، وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق، وفرطوا بمال الأيتام، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم. ولو داسوا الدين بالإقدام".

وفى عام ١٩٠٩ وعندما قام الوردانى باغتيال بطرس باشا غالى الأسباب سياسية؛ تهيأت عناصر الفتنة بين المسلمين والمسيحيين وانفجرت المساجلات والمناظرات بين بعض رجال الدين من الجانبين بما فتح باب الفتنة واسعا، وإلى هؤلاء جميعا يوجه شميل سهامه: "يا مقلنسى الجهل ومعممى الضلال أين رأيتم فى أديانكم ما يسمح لكم بأن تزرعوا فى رؤوس أتباعكم الجاهلين التفريق بين الناس إلى حد التباغض والتقاتل".

ويقول: "لو قامت الإنسانية فى كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الأديان – الذين هم وحدهم المسئولون عن كل الفظائع التى ارتكبت، ولا تزال ترتكب باسم الدين – نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام منهم لما جنوه اليوم على الإنسان". «من مقال ضحايا الجهل – جريدة الأخبار – عام ١٩٠٩).

وهو أول من يطالب علنا بالجمهورية على أرض مصر، ولكن أى نوع من الجمهورية؟ أراد شميل "الجمهورية الحقيقية التى يتم فيها توزيع الأعمال على قدر المنافع العمومية بحيث تتوفر معها المنفعة لكل فرد فى المجتمع بدون أدنى تمييز مطلقا. جمهورية تصبح فيها الأمة هى الكل والحكومة لا شىء".

والإصلاح لا يأتى عفوا "إن من ينتظر الإصلاح عفوا من أية حكومات كانت إنما يجهل لا شك تاريخ نشوء الأمم"، "ولا تلام الحكومة إذا داست على رقاب الرعية، فهل تداس رقاب تأبى أن تداس" (مقال: كما تكونون يولى عليكم – الجزء٢ من مجموعة الأعمال، ص١٩٠).

ولذلك فلا سبيل إلا "الثورة"، "والأيام حبالى ولا بد من أن تلد ثورة لا تذكر معها ثورة القرن الماضى، ثورة تنصر الشعوب فيها بعضها بعضا، ينصرون بعضهم على حكوماتهم لقلبها وإبدالها".

ولكن ثورة من أجل ماذا؟ إنها "ثورة العمال ضد أصحاب المال"، هكذا ببساطة

وصراحة، ومتى قالها؟ قبل نهايات القرن التاسع عشر.

وشبلى شميل هو الأب الروحى لدعاة الاشتراكية المصرية، فهو ليس فقط أول من دافع عن الاشتراكية دفاعا شجاعا مبنيا على فهم علمى وطبقى، لكنه أيضا أول من قدم المفاتيح الطبقية لفهم الاشتراكية فهما علميا وطبقيا.

"فالاشتراكية نتيجة لأزمة، لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول إليها ولو بعد تذبذب طويل".

والاشتراكية عنده مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى، وليست مجرد مطالب تستهدف إصلاح أحوال الفقراء، وهو يفرق بين دعوته ودعوة هؤلاء الذين ينظرون إلى الاشتراكية كمجرد أداة لإقرار العدل فيقول: "يطرقون هذا البحث، ويكثرون فيه من المن على الإنسان فيطلبون الإصلاح له لضعفه وسقمه، يطلبونه له رأفة وشفقة عليه، أما نحن فنقول إن الإنسان فى المجتمع فى غنى عن رحمة الراحمين وشفقة المشفقين، فلا نطرق هذا البحث بتحريك العواطف، ولا ندع للإنسان على إنسان منا".

وفى عام ١٩٠٨ ينشر شبلى شميل مقالا على صفحات جريدة «الأخبار» يدعو فيه صراحة إلى الاشتراكية، وعنوان المقال "الاشتراكيون" وينبرى سليم سركيس محاولا طمس الموقف، بل إرهاب الكاتب فيحذره على صفحات "المؤيد" من المضى فى هذا الطريق حتى لا يتهم بأنه اشتراكى، ويلمح شميل الفخ الذى نصبه له سركيس فيكتب مقالا أكثر صراحة عنوانه "الاشتراكية" يخاطب فيه سليم سركيس قائلا: «فى كتابتك على صفحات المؤيد طلبت منى أن أثبت حقيقة وأن أدفع شبهة، طلبت منى أن أبين لماذا أدافع عن الاشتراكيين وأن أتوسع فى الموضوع لأن ما كتبته على صفحات الأخبار لم يكن مقنعا، وأن أخرج منها طاهر الذيل، فشكرتك على حسن ولائك، ولو أنى أعجبت أكثر بدهائك». ثم يقول: «لقد كنت أفهم قبل اليوم أن الاشتراكية فى نظر خصومها مطلب بعيد المنال، فإذا هى فوق ذلك وصمة تعرض صاحبها لأقبح المظان».

ويمضى شميل ليشرح، وبإتقان علمى متميز أفكار الاشتراكية ومبادئها، ولا يكتفى بذلك بل هو يشن هجوما ساخطا وشجاعا ضد الرأسمالية وضد المجتمع الرأسمالى ككل، "فلقد كان بالإمكان تدارك الشر لو أن الحكومات لا تنقاد انقيادا أعمى لأصحاب الأموال، أو لو أن هؤلاء يخفضون قليلا من كبريائهم ويعترفون بحقوق الذين لولاهم لبارت تجارتهم وقل استثمار أموالهم" (مقال لطمة على خد العالم – الجزء ٢ – ص ١٤٣).

ثم هو يهاجم الأغنياء، هجوما عنيفا وبلا تردد... «رأيت الفاعل يشتغل فى الحر، العرق يتصبب من بدنه كالمطر ليطعم سواه مما جناه ولا يناله من ذلك إلا نذر يسير لا يفى بحاجة زوجته العارية وأولاده الجياع، ورأيت الغنى الشبعان يبلع الجمل ولا يتستر، والفقير الجائع يتلصص ليسرق رغيفا من الخبز الأسمر، والقانون يكافئ ذاك برفع القبعات ويعاقب هذا بالسجن سنوات، رأيت معالم الظلم تشاد فوق الناس تحت لواء العدل، ودعوى الهداية والإيمان تسرى تحت قلانس المكر وعمائم الجهل».

ويمضى شميل بمبدئه الصارم "الحقيقة أن تقال لا أن تعلم" فيقول للناس كل ما يعرف مهما سبب له ذلك من مصاعب.

ولم تذهب كتابات شميل هباء، بل هى لم تكتف بتحقيق أمنيته فى تحريك البركة الراكدة فى العقل المصرى، بل لعلها تجاوزت ذلك بأن أسهمت فى إنبات زهور الاشتراكية المصرية.

يقول أحد الرواد الأوائل للنضال الاشتراكى المصرى، محمد دويدار: «كانت نقطة التحول فى حياتى هى اطلاعى على كتابات شبلى شميل، وقد اشتريت كتابيه بجنيهين، ولك أن تتصور كيف أمكن لعامل بسيط مثلى أن يدخر من مرتبه مبلغا كهذا ليشترى كتابا. وقد أثرت فى كتابات شميل تأثيرا كبيرا لدرجة أننى قرأتها عشرات المرات وحفظت منها مقاطع كاملة» (محضر نقاش أجريته معه فى ٢٢ يناير ١٩٧٧) وبالطبع لم يكن دويدار وحده.

ألم أقل لكم إن شميل هو الأب الروحى للاشتراكية المصرية؟